اتخاذ النبي ﷺ، قدوة (٢٢)

وهذه ركيزة هامة وعملية من الركائز التي تقوم عليها الأخلاق في شريعة الإسلام، لأن الناس إذا اتخذوا النبي ﷺ قدوة عصموا أنفسهم من الوقوع فيما يغضب الله سبحانه، وأصبحوا بهذه القدوة أقرب ما يكونون إلى رضاه سبحانه وتعالى.

وقد كانت أخلاق رسول الله ﷺ التي يجب أن يقتدي بها المسلمون خير أخلاق وأعظم أخلاق، وبحسبها في هذا الشرف قول الله تبارك وتعالى في وصف أخلاق رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

(٢٢) تربية الناشئ المسلم – الدكتور علي عبدالحليم محمود – ط٢-١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ولقد وصفت أم المؤمنين عائشة < خلق النبي ﷺ بأنه كان القرآن الكريم ، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن سعد بن هشام بن عامر قال: دخلت على عائشة < فقلت: يا أم المؤمنين ، ما كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، ثم قالت:أتقرؤون سورة المؤمنين؟ قلنا: نعم. قالت: اقرأ ، فقرأت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٥]. فقالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.

ولقد تضمن القرآن الكريم كل خلق فاضل ، وكثرت فيه الآيات الكريمة التي عددت وفصلت مكارم الأخلاق ، مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ

بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[النحل: ٩٠].

وكقوله عز وجل﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[الأعراف: ١٩٩].

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت:٣٤].

وكقوله جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[الحجرات: ١٢].وقوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾[لقمان:١٧].

ولما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

تلك كانت عظمة أخلاق النبي ﷺ ولا عجب في

ذلك ، فقد أدبه ربه سبحانه فأحسن تأديبه ، واصطفاه وعلمه الكتاب والحكمة ، وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما، ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ ما رواه أحمد بسنده عن عائشة < أن النبي ﷺ كان يدعو: « اللهم كما أحسنت خَلْقي فأحسن خُلُقي ».

وروى الترمذي بسنده عن قطبة بن مالك > أن رسول الله ﷺ كان يدعو: « اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق».

ولقد أخبر الله تبارك وتعالى المسلمين بأن يتخذوا من النبي ﷺ وأخلاقه قدوة فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذه الآية – كما قال المفسرون – أصل كبير وعظيم في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله

وأحواله.

روى أبو الشيخ الأصبهاني في كتابه « أخلاق النبيﷺ » بسنده: «عن الحسن بن على بن أبي طالب { قال: سألت أبي عن دخول النبي ﷺ قال:

كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك ، وكان إذا أتى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله وجزء لأهله وجزء لنفسه ، ثم يجعل جزأه بين الناس ، فيرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئاً.

فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمته على قدر فضلهم في الدين ، منهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا

يستطيع إبلاغي حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ثبت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره ».

– قلت: فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟

– قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس عنهم من غير أن يطوي عن أحد بِشْرَه وخلقه ، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويصوبه ، ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجاوزه إلى غيره ، الذين يلونه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

- وسألته عن مجلسه؟

- فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله عز وجل ، ولا يوطن الأماكن ، وينهى عن إيطانها ، وإذا جلس إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلسائه بنصيبه ، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه ، ومن جالسه أو قاومه لحاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم ينصرف إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس منه خُلقُه فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء.

مجلسه مجلس حلم ، وحياء وصدق ، وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تنثى – أي تشاع – فلتاته ، معتدلين يتواصلون فيه بالتقوى ، متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون فيه الصغير ،

ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب.

- قلت: كيف كانت سيرته في جلساته؟

- قال: كان رسول الله ﷺدائم البشر ، سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا فاحش ولا عياب ، ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء و الإكثار وما لا يعينه ، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عوراته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير وإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده الحديث من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم يضحك مما يضحكون ويتعجب مما يتعجبون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان

أصحابه ليستجلبونهم فيقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكاف ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام.

- فسألت: كيف كان سكوت رسول الله ﷺ؟

- قال: كان سكوت رسول الله ﷺ على أربع: على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكير.

فأما تقديره ففي تسوية النظر ، والاستماع من الناس.

وأما تفكيره ففيما يبقى ولا يفنى. وجمع له الحلم في الصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه ، وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به وتركه القبيح لينتهى عنه ، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته ، والقيام فيما هو خير لهم ، وجمع لهم خير الدنيا والآخرة).

هذه أخلاق النبي ﷺ التي يجب أن يقتدي بها

المسلمون ، كما تحدث عنها ابن عمه ومن تربى في حجره ومن كان أول من أسلم من الصبيان علي بـن أبي طالـب >.

وكل مسلم مطالب بأن يتخذ النبـي ﷺ أسـوة في كل تلك الأخلاق ، لأن القدوة أسلوب في تربيـة الخلـق لا يعدله أسلوب وبخاصة إذا كانـت القـدوة بالمعصـوم ﷺ.

وأخلاق النبي ﷺ أوضح ما تكون في كتب السـنة والسيرة النبوية المطهرة.

وهكذا يقيم الإسلام التربية الأخلاقية على ركيـزة راسخة ، هي الاقتداء بمحمد ﷺ.

□□□